

وإذا غابت التنمية اصطلاحاً لغويًا في معاقلنا الفكرية التاريخية، فإن مصطلحات الإعمار والعمران والعمارة والحياة الطيبة كانت ملازمة لكتابات هؤلاء الرواد وكان الهدف التغييري نحو الأصلاح والأفضل لمجتمعاتهم شغلهم الشاغل، فليس حسن العمل والمكافئة عليه والنجاة في الدنيا والسعادة فيها إلا مطية لحسن الجزاء والنجاة في الآخرة. فأبو يوسف في كتابه "الخراج" يجعل الإعمار

بقلم د . خالد الطراولي

إذا كان التنظير التنموي السائد يغلب عليه الطابع الليبرالي في تاريخه و حاضره (من كلاسيك وكينزيين وتقديين) فإن انحسار المقاربة الماركسية وذبولها بعد انهيار القطب الاشتراكي جعل بعض المفكرين يتحدث عن هيمنة الفلسفة الليبرالية وحتى عن نهاية التاريخ كما يزعم فوكوراما[1]. وأصبح هم الفرد والجماعة في كل أنحاء العالم الزيادة في الاستهلاك والإنتاج، يقول سارج لاتوش: "إن التنمية تعني في المفهوم العام مستوى عيش ورفاهية للجميع وهي تعني لدى جماهير العالم الثالث (بما فهم روسيا وحليقاتها) قوة استهلاك مماثلة للأمريكي المتوسط ولدى حكوماتها الدخول إلى نادي البلدان العظمى (بامتلاك القبلة الذرية)". [2] وفي ظل هذه الهيمنة الليبرالية على طرح موضوع التنمية، ظهرت منذ السبعينات، محاولات لبعض المفكرين الإسلاميين لتحديد مفهوم جديد للتنمية الاقتصادية، من خلال الرؤية الإسلامية للاقتصاد.

وقد غلب على هذه النظرة الإسلامية، عدم حداثتها وعدم اختلافها الجوهرية عن الرؤية الليبرالية. فكانت مفاهيم التنمية المطروحة ليبرالية البناء والهدف في إطار أخلاقي إسلامي، مما أفقد الفكر الإسلامي تمكنه بين أدبيات التنمية، وتطلعه لتمثيل البديل العالمي المنتظر، في مواجهة أطروحات التنمية المهيمنة، وغيابه في الندوات العالمية والبحوث التنموية. يقول غارودي في حديثه عن الغرب: "لا يمكن لنا (الغرب) أن نغير علاقاتنا مع العالم الثالث إلا إذا تحققنا من أن هناك شيئاً يمكن أن نحفظه عنهم"[3]. * التنمية في الفكر الإسلامي الحديث:

فالتنمية الاقتصادية في الإسلام حسب ناصر عثمان "تمثل في إقامة المجتمع الذي يفى بتحقيق أعلى مستويات الإنتاج لتحقيق أعلى مستويات الاستهلاك، في ظل تقوى الله" [4]. وهي لا تختلف لدى شوقي دنيا [5] عن المفهوم الوضعي، إلا لكونها أداة لنشر الخير والعدل والسلام والحق في أرجاء الأرض. وهي تهدف إلى تحقيق تقدم مادي غير محايد للقيم لدى منذر فحف [6]. وهي ملازمة لتنمية الإنتاج وتنمية ثروة المجتمع حسب عفر [7]. ويسعى النجار إلى تبديد أي اختلاف للرؤية الإسلامية عن أخواتها "فإن هذا المفهوم (المفهوم الإسلامي للتنمية) لا يختلف كثيراً عن مفهوم التنمية الاقتصادية في الفكر المعاصر". [8] وهذا ما جعل محمد علي القرى [9] في استعراضه للكتابات المعاصرة للتنمية في الإسلام، يخلص إلى أن "المفهوم الوضعي للتنمية الاقتصادية يشير إلى نوعين رئيسيين من الأهداف المحتملة لعملية التنمية الاقتصادية، الأول يتعلق بتحسين مستوى الدخل الفردي الحقيقي، والثاني يتعلق بتحسين مستوى العدالة في توزيع الدخل، وتتصدى أكثر الأهداف التي يتحدث عنها الكتاب المسلمون تحت هذين النوعين الرئيسيين".

وهكذا أوضحت التنمية الاقتصادية تعني مجموعة مؤشرات وجب رفعها وتقنيات حديثة وجب إدماجها من أجل عطاء أكثر وإنقاص لتكاليف الإنتاج. وهذا يعني كذلك أن الاقتصاديين الإسلاميين لم يتحرروا من نظرية الملاحقة التنموية، التي أوجدتها المدرسة الكلاسيكية، والتي تفيد أن عدم التنمية يعني حالة تخلف، يجب تجاوزها إلى حالة أرفع وأحدث، وتؤكد صحة مقولة "أنه لا خلاص خارج التنمية".

إن التنمية مصطلح حديث، وهي حالة تاريخية وقعت في مجتمع له ميزاته الثقافية ودياناته ومعتقداته الفكرية، وفي ظل استعمار عالمي، واستيلاء لخيرات العالم المحيط وتحطيم لكل بناه الداخلية. وقد حاولت عدة أطراف بعد الاستقلال السياسي لهذه البلدان، ومن خلال قضية التنمية وعبر تركيزها على الجانب الاقتصادي وتهويله، وتقزيم الأبعاد الأخرى، حصر كل الواقع الاجتماعي في جانبه المادي، الذي تحول إلى كمّ، ثم إلى رقم حسابي.

إن التحرر الفكري من أجنية المشروع التنموي الحالي، يجب أن يُفهم على أساس أن التخلف هو عملية مسخ فكري وثقافي لسكان العالم الثالث، تمثل بداية في الاستحواذ المباشر [10]، والذي تواصل من خلال التغريب الفكري المتمثل في التنمية. ورغم أن الاقتصاديين الإسلاميين عند تحديدهم لماهية التخلف قد تعرضوا لهذا البعد الفكري والديني، غير أنهم عجزوا عن بلورته إلى مفهوم آخر وحديث للتنمية يكون مخالفاً تماماً للمفهوم المهيمن. فعفر [11] يرجع التخلف إلى انحراف قيم ومعتقدات مجتمع اليوم، وشوقي دنيا [12] إلى إعراض عن تعاليم الله، وزوال للقيم الصالحة التي يريد بها الله.

ويبدو أن العجز يعود أساساً إلى النظرة الإسلامية للاقتصاد، التي ظلت حبيسة الرؤية السائدة وعدم تحررها من منهجيتها ولا من ماهيتها. فإذا كانت الأدبيات تحوم في الخمسينات حول الدور الأساسي والوحيد للاشتراكية في فهم ومعالجة المشكلة الاقتصادية لبلدان العالم الثالث، فإنك ترى في الفضاء الإسلامي انتشار هذا المصطلح وهذا التحليل.

وبرزت مفاهيم الاشتراكية الإسلامية والعدالة الاجتماعية [13]، وظهرت أحاديث ومواقف تدعم هذه المعاني، وتؤكد هذا المنهج، حتى أُلصقت ببعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم توجهات يمينية ويسارية، وأضحى أبو ذر اشتراكياً وعمان ومعاوية ليبراليين!... ثم لما انتقلت الموضة الفكرية في الغرب، في السبعينات والثمانينات إلى الرؤى الليبرالية، وخاصة جناحها النظري النقدي)

(monetarists) والواقعي في تطبيقات السيدة تانشر والرئيس ريغان، غلب على التفكير الاقتصادي الإسلامي المنحى الليبرالي، مع ديكور وإطار إسلامي. حتى أن منهجية البحث و التقديم، أصبحت مقلدة من كتابات اقتصادية غربية معروفة [14]]. وأصبح همّ المفكر الإسلامي وهدفه الأسمى لا يختلف عما يطرحه زميله الغربي، من حيث أن مشكلة التخلف الاقتصادية أساسا (مع اختلاف طفيف لدور الإنسان)، وأن حلها اقتصادي كذلك. فكل الأهداف الأساسية للمشروع التنموي الإسلامي، هي تعبئة الطاقات العاملة من أجل إنتاج واستهلاك أعظم، في ظل رفاهية أكبر (مع أخلاق إسلامية!).

* وقفة مع الفكر "الإيماني" الإسلامي القديم:

إن الحس الإيماني في مستوى التنظير لم يكن غائبا عن رواد الفقه الإسلامي الأول، ولن نقف مطولا عنده، فهو ليس من مهمات هذه الورقة، غير أنه سنلامس باقتضاب هذا العمق النظري للاستظهار به ومصاحبتنا في تبني علاقة الوصال وعدم القطيعة بين القديم والحديث في الهم الإيماني الذي خلص في أيامه البعيدة إلى همّ حضاري دائم ومتجدد إلى حين السقوط. وإذا غابت التنمية اصطلاحا لغويا في معالمتنا الفكرية التاريخية، فإن مصطلحات الإعمار وال عمران والعمارة والحياة الطيبة كانت ملازمة لكتابات هؤلاء الرواد وكان الهدف التغييري نحو الأصلح والأفضل لمجتمعاتهم شغلهم الشاغل، فليس حسن العمل والمكافئة عليه والنجاة في الدنيا والسعادة فيها إلا مطية لحسن الجزاء والنجاة في الآخرة. فأبو يوسف في كتابه "الخراج" يجعل الإعمار والتنمية في مقابل الخراب والفساد وبنادي بدور متقدم للدولة في العمران، ويدعو إلى تقاسم تكاليف "النمو" بين الفرد والدولة من أجل تخفيف كاهلها، وسحب المواطن عن الاتكال والدفع به إلى المساهمة في دور عمران يعني المجموعة كما يعنيه شخصيا [15].

في المقابل فقد عظم ابن حزم دور الدولة وجعلها مسئولة كلية في رفاهية شعبها وتنميته، مما جعله يصل إلى حدّ مطالبتها بتأميم الممتلكات الشخصية ومصادرتها لفائدة المجموعة إذا لم تكف إيرادات الزكاة في تلبية حاجياتها، مما جعله يعتبر عند البعض أول اشتراكيّ في الإسلام [16]]. كما نجد هذا التضخم نفسه في تمويل التنمية عند كل من ابن تيمية في جعلها المراقب والحاكم الفصل من أجل انسجام النشاط الاقتصادي وواجبات الدين ومتطلباته ويظهر هذا البعد خاصة في تدخل الدولة في التسعير [17]]. وعند الماوردي حيث يرى أن من مستلزمات السلطان السبعة، عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها، غير أنه يلزمها بالعدل حيث يندم نجاح المشروع الإيماني إذا لم يصطبغ بالعدل الشامل الذي يعمر البلاد وينمي الأموال [18]]. وبتقلص العدل وهيمته الفساد والجور والاعتصاب في كل مواطن الحكم والإدارة يتوقف الإعمار وتحدث الأزمات وبحل البوار بالديار عند المقريزي [19].

ونختم حديثنا في هذا الباب دون احتوائه بذكر عطاء ابن خلدون في هذا الباب، حيث تظهر الدولة الخلدونية الأساس في عمران البلاد أو سقوطه، ويتجلى قسم الضرائب وما يحتويه من آليات ومن أبواب توزيع واستثمار، سواء الوجه المشرق للدولة الناجحة والمجتمع النامي، أو الوجه الخافت والمظلم للدولة الجائرة والفاسدة، وللمجتمع الفقير والمتخلف.

لعل الملاحظ في هذا السرد المقتضب لهذه الوجوه الفقهية في التاريخ البعيد، هو التركيز الذي يتقاسمه أغلب الرواد على هذا البعد الأخلاقي للتنمية، وارتباط السياسي والثقافي والاقتصادي ككل متجانس لإحداث النقلة الصحيحة والمشوار السليم. فلم تكن الأخلاق رافدا من الروافد ولكن منطلق المسار وأساسه وهدفه الأسمى.

لن تكون منهجيتنا اللاحقة في رد فعل طبيعي لتحديات النظريات المقابلة، ولدوافع الواقع وطلباته المتجددة فقط، ولكن أيضا تواصلنا مع إرث تاريخي طويل لهموم الإعمار والحياة الطيبة والرفاهة الروحية والمادية، عمودا العملية الاقتصادية وإحدى أهم الأهداف الأساسية لتمثل العبادة في إطارها الإنساني الديني.

إن هذا البعد الروحي الأخلاقي المتمكن ماديا، الذي سوف يشكل أساس طرحنا في الأسطر الموالية، والذي نسعى من خلاله وبكل تواضع إلى إعطاء التنظير الاقتصادي والتنموي وجوب وإمكانية التميّز، وطرح بديل مغاير، لا يقف فقط عند التغيير الذهاني أو المحتشم، كما شهدته الكثير من الكتابات التنموية الإسلامية التي ذكرناها سالفا، ولكن تميزا عميقا في مستوى الفرضيات والنتائج، ينشد سعادة الإنسان ورفاهته الدنيوية والروحية.

- يتبع -